﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣﴾ [الحج: 32 - 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

تأكيدُ ما سبقَ من التَّوحيدِ والإخلاصِ

جاءتِ الآيتان مفتتحتَيْنِ بأداة الإشارة البعيدةِ لتأكيد ما تقدَّمَ من تعظيم أمرِ التَّوحيد، ولتعظيم ما هو مُسبَّبٌ عن التَّوحيدِ، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾[1]، وتعظيمُ شعائرِ الله يُضفي تعظيمًا على التَّوحيدِ وتوابعِه، فهذهِ الآيةُ أعمُّ ممّا قبلَها، وتعود عليها بإضافات معنويَّة: فبتعظيم الشَّعائرِ تعْظُم منافعُها أيضًا، فيكون من المُتلَقّين إقبالٌ شديدٌ عليها، والمنافع حاملةٌ لذوي البصائر على التَّفكُّر فيها لا سيَّما مع تفاوتها، والتَّفكُّرُ فيها موصِّل إلى التَّقوى بمعرفة أنَّها من الله، وأنَّه قادرٌ على ما يريد، وأنَّه لا شريك له[2]، فالآيةُ الثّانيةُ من هاتَيْن الآيتَيْن امتدادٌ للأولى وتفصيل لها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَعَٰٓئِرَ﴾: الشَّعَرُ معروفٌ، وجمعُهُ: أشعارٌ، ومنهُ استُعيرَ: شَعَرْتُ كذا، أيْ: علمتُ عِلْمًا في الدِّقَّةِ كإصابةِ الشَّعَرِ، وسُمّي الشّاعرُ شاعرًا لفِطْنتِه ودِقَّة معرفتِه[3]، وأشعرتُهُ، فشَعَرَ: أدريتَهُ فدَرَى[4]، ومشاعرُ الحجِّ: معالمُهُ الظّاهرةُ للحواسِّ، والواحدُ: مَشْعَرٌ، ويُقالُ أيضًا: شعائرُ الحجِّ، والواحدُ: شَعيرةٌ، قالَ تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ [البقرة: 198]، وقالَ: ﴿لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [المائدة:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 223، والبقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 44.
(2) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 46.
(3) الراغب، المفردات: (شعر).
(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (شعر).

2]، أيْ: ما يُهْدَى إلى بيتِ اللّهِ، وسُمّيتْ بذلكَ؛ لأنَّها تُشْعَرُ، أيْ: تُعلَّمُ بأنْ تُدْمَى بشعيرةٍ، أيْ: حديدةٍ[1]، والشَّعائرُ أيضًا: كلُّ شيءٍ للّهِ تعالى فيهِ أمرٌ أُشعِرَ بهِ وأُعلِمَ[2].

2) ﴿مَحِلُّهَآ﴾: المعنى المحوريُّ للحاءِ واللّامِ: فَتْحُ الشَّيءِ[3]، وفكُّ ما كانَ مربوطًا موثَّقًا[4]، كحَلِّ العُقْدةِ، ومنهُ قولُهُ ﷻ: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ [طه: 27]، وحَلَلْتُ: نَزَلْتُ، أصلُهُ من حَلِّ الأحمالِ عندَ النُّزولِ، ثمَّ جُرِّدَ استعمالُهُ للنُّزولِ، فقيلَ: حلَّ حُلولًا، وأحلَّهُ غيرُهُ، قالَ: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ٢٨﴾ [إبراهيم: 28]، ويُقالُ: حَلَّ الدَّينُ: وجبَ أداؤُهُ، والمحلَّةُ: مكانُ النُّزولِ، وعن حَلِّ العُقْدةِ استُعيرَ قولُهم: حلَّ الشَّيءُ حلالًا، قالَ ﷺ: ﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ [المائدة: 88]، ومن الحُلولِ: أحلَّتِ الشّاةُ: نزلَ اللَّبَنُ في ضَرْعِها، وقالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ﴾ [البقرة: 196][5]، والمَحِلُّ في قوله تعالى: ﴿مَحِلُّهَآ﴾ مصدرٌ ميميٌّ من حَلَّ يَحِلُّ؛ إذا بلغ المكانَ، واستقرَّ فيه، وهو كنايةٌ عن نهاية أمرِها، كما يُقال: بلغَ الغايةَ، ونهايةُ أمرِها: النَّحرُ أو الذَّبح[6].

3) ﴿ٱلۡعَتِيقِ﴾: العتيقُ: المُتقدِّمُ في الزَّمانِ أو المكانِ أو الرُّتبةِ، ولذلكَ قيلَ للقديمِ: عتيقٌ، وللكريمِ: عتيقٌ، وعِتاقُ الخيلِ والطَّيرِ: كرائمُها، ويُقالُ: فلانٌ عتيقُ الوجهِ، أيْ: جميلُهُ، ويُقالُ لمَنْ خَلا عن الرِّقِّ: عتيقٌ، قالَ تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحجّ: 29] قيلَ: سُمّي البيتُ العتيقُ بذلكَ؛ لأنَّهُ مُعْتَقٌ من الجبّارينَ، لم يَقصِدْهُ جبّارٌ إلّا قُصِمَ، وقيلَ: لأنَّهُ مُعْتَقٌ من الطّوفانِ، وقيلَ: لأنَّهُ مُقدَّمٌ بدليلِ قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 96][7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبرُ اللّهُ ﷻ عن تعظيمِ شعائرِهِ، فيقولُ: ومَنْ يُعظِّمْ شعائرَ اللّهِ الَّتي هي نَعَمُ الهَدْيِ، فإنَّ تعظيمَها من تقوى قُلوبِكم - أيُّها المؤمنونَ - ثمَّ يُخبرُ عمّا جعلَ في هذهِ الهدايا من المنافعِ،

(1) الرَّاغب، المُفردات: (شعر).
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حلل).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حلل).
(5) الرَّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (حلل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 258.
(7) الرَّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ، والزَّمخشريّ، أساس البلاغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (عتق).

فيقولُ: لكم - أيُّها المؤمنونَ - فيها منافعُ مُتعدِّدةٌ مُتنوِّعةٌ من لَبَنِها وصوفِها وأوبارِها وأشعارِها ورُكوبِها تنتَفِعون بها إلى أن تَنْحَروها، ثمَّ مَحِلُّ الهَدْيِ وانتهاؤُهُ إلى البيتِ العتيقِ، وهو الكعبةُ المُشرَّفةُ[1].

تعظيمُ الهَدْيِ من تَقْوَى القُلوبِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَۖ﴾:

اسمُ الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ مِنْ فصلِ الخطابِ، وهو مُستعمَلٌ هنا للفصلِ بينَ كلامَينِ أو بينَ وجهَيْنِ من كلامٍ واحدٍ، والقصدُ منهُ التَّنبيهُ على الاهتمامِ بما سيُذكَرُ بعدَهُ، وهو مِنْ أساليبِ الاقتضابِ في الانتقالِ، والمشهورُ في هذا الاستعمالِ لفظُ (هذا)، كما في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥﴾ [ص: 55]، وهو كما يُقدِّمُ الكاتبُ جُملةً مِنْ كتابِهِ في بعضِ المعاني، فإذا أرادَ الخَوْضَ في معنًى آخرَ؛ قالَ: هذا وقد كانَ كذا وكذا[2].

لفصلِ الخطابِ والتَّنبيهِ على أهمّيَّةِ ما سيُذكَرُ بعدَه

إعرابُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَۖ﴾:

الأظهرُ أنَّ ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ في قولِه جلَّ وتبارك: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ خبرُ مبتدأٍ مُضمَرٍ، أي: الأمرُ والشَّأنُ ذلكَ[3]، كما يُقدِّمُ الكاتبُ جملةً مِنْ كتابِهِ في بعضِ المعاني، ثمَّ إذا أرادَ الخَوْضَ في معنًى آخرَ؛ قالَ: هذا وقد كانَ كذا وكذا[4]، وقيلَ: هو مبتدأٌ خبرُهُ محذوفٌ، أيْ: ذلكَ الأمرُ الَّذي ذكرتُهُ[5]، أو ذلكَ أمرُ اللهِ[6]، أو ذلكَ بيانٌ أو ذِكْرٌ[7]، وقيلَ: هو في مَحَلِّ نصبٍ، أي: امتَثِلوا ذلكَ[8].

الرَّفْعُ على الخبريَّةِ على الأظهرِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 621 - 623، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 421.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 154، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 476، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 251.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121، والسَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 269.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 154.
(5) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 269.
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 56.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 251.
(8) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 56.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تعظيمُ شأنِ المُشارِ إليهِ وتفخيمُهُ

أوثِرَ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ اسمُ الإشارةِ للبعيدِ؛ للدَّلالةِ على بُعْدِ منزلةِ المُشارِ إليهِ؛ كنايةً عن تعظيمِ مضمونِ ما قبلَهُ[1]، أي: الأمرُ العظيمُ الكبيرُ ذلكَ، فمَنْ راعاهُ؛ فازَ، ومَنْ حادَ عنهُ؛ خابَ وخَسِرَ[2].

علَّةُ تكرارِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الرُّجوعُ إلى حديثِ المناسكِ بعدَ الانتقالِ إلى غيرِهِ

تكرَّرَ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحجّ: 30]، وقولِهِ هنا: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾، والنُّكتةُ في هذا التَّكرارِ: أنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الموضعَيْنِ مِنْ فصلِ الخطابِ، بيانُهُ أنَّهُ لمّا ذَكَرَ تعالى نُبَذًا مِنْ مناسكِ الحجِّ - وكانَ حديثًا في بيانِ التَّوصيةِ في حُرُماتِ الحجِّ وتعظيمِ شعائرِ اللهِ - ناسبَ أنْ يذكرَ سائرَ المُحرَّماتِ استطرادًا؛ فقدَّمَ مِنْ أُمَّهاتِ الخبائثِ ما يستتبعُ سائرَها مِنَ الشِّركِ وقولِ الزُّورِ، وجعلَ التَّخلُّصَ إلى ذكرِهما ما كانوا يُعظِّمونَهُ مِنَ القرابينِ تشبيهًا لها بالمعبودِ بالحقِّ، ولمّا أرادَ العَوْدَ إلى ما بدأ بهِ مِنْ حديثِ المناسكِ؛ أعادَ بفصلِ الخطابِ، فقالَ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[3]، وهذا التَّكرارُ من وجوهِ التَّأليفِ بينَ المعاني المختلفةِ الَّتي جَرَتْ في حيِّزِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في الموضعَيْنِ، وهو من وجوهِ التَّماسكِ بينَ معانيها.

نوعُ الواوِ ودلالتُها في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾:

الواوُ للعطفِ على ما سبَقَ عمومُهُ اهتمامًا بالمعطوفِ الأخصِّ

قيلَ: الشَّعائرُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ لَقَبٌ لمناسكِ الحجِّ، وقيلَ: المُرادُ بها: نَعَمُ الهَدْيِ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ﴾، فعلى التَّفسيرِ الأوَّلِ تكونُ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 59.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 44.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 476.

جملةُ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخرِها عطفًا على جملةِ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: 30] إلى آخرِها، وشعائرُ اللهِ أخصُّ مِنْ حُرُماتِ اللهِ، فجاء عطفُ هذهِ الجملةِ للعنايةِ بالشَّعائرِ؛ لأنَّ ذِكْرَ الأخصِّ بعدَ الأعمِّ للاهتمامِ.

وعلى التَّفسيرِ الثّاني للشَّعائرِ تكونُ جملةُ ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ عطفًا على جملةِ ﴿وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ [الحج: 28]؛ تخصيصًا لها بالذِّكرِ بعدَ ذِكْرِ حُرُماتِ اللهِ[1].

دلالةُ ﴿وَمَن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ﴾:

(مَـنْ) أسلوب شرطٍ للحسم والفصل والتَّرتُّب

﴿وَمَن﴾ في قولِ اللهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ شرطيَّةٌ، والغرضُ مِن استعمالِ أسلوبِ الشَّرطِ في هذهِ الآيةِ الحثُّ على تعظيمِ الشَّعائرِ والتَّحريضُ عليه[2]، والرَّبطُ بينَ تعظيمِ الشَّعائرِ وتقوى القُلوبِ؛ إذ التَّقوى هي الغايةُ مِنْ مناسكِ الحجِّ وشعائرِهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ ﴿يُعَظِّمْ﴾:

تعظيمُ الشعائرِ غـــرسٌ ينـمـو ويكبر

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللهِ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ تعظيمِ شعائرِ اللهِ وتجدُّدِهِ، وأنَّ ذلكَ ينبغي أنْ يكونَ شأنَ المسلمِ على الدَّوامِ حتَّى يصيرَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهِ الرّاسخةِ، فأصلُ هذا التَّعظيمِ لشعائرِ اللهِ ثابتٌ راسخٌ في نفسِ المؤمنِ، ثم إنَّه يتجدَّدُ بتجدُّدِ ما يدعو إليه، وما يتسبَّبُ فيه.

غرضُ التَّعبيرِ بصيغةِ الجمعِ ﴿شَعَـٰٓئِرَ﴾:

الإشـــارةُ إلى التَّعدُّدِ والتَّنوُّعِ

يحتملُ أنْ يُرادَ بالشَّعائرِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 256.

(2) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 111.

﴿يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ مناسكُ الحجِّ كلُّها؛ فيكونُ التَّعبيرُ بصيغةِ الجمعِ ظاهرًا لكثرةِ مناسكِ الحجِّ وتعدُّدِها، ويحتملُ أنْ يُرادَ بها نَعَمُ الهَدْيِ على وجهِ الخصوصِ، والتَّعبيرُ بصيغةِ الجمعِ باعتبارِ تنوُّعِها مِنْ حيثُ هي غَنَمٌ أو إبلٌ أو نحوُهما، ومِنْ حيثُ كونُها لقارنٍ أو مُتمتِّعٍ أو غيرِهما، والتَّعبير بجمعِ الكثرة هنا على ظاهره؛ إن روعيتْ أفراد نَعَم الهدي، وعلى غير ظاهره؛ إن روعيتْ أجناسها، ويكون للتَّعظيم.

بلاغةُ الإضافةِ إلى لفظِ الجلالةِ وسِرُّ اختياره:

تعظيمُ الشَّعائرِ وتشريفُها مِنَ التَّوحيد

إضافةُ الشَّعائرِ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ لتشريفِ الشَّعائرِ وتعظيمِها[1] مِنْ حيثُ نِسْبتُها إلى اللهِ تعالى، وفي هذهِ الإضافةِ أيضًا تعليلٌ للتَّعظيمِ، كأنَّهُ قيلَ: ومَنْ يُعظِّمِ الشَّعائرَ؛ لأنَّها شعائرُ اللهِ، فهي ليستْ واجبةَ التَّعظيمِ لذاتِها، بل لأنَّها للهِ تعالى[2].

وعُبِّر باسم الجلالة دون الرَّبِّ ونحوه مِن الأسماء والصِّفاتِ؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ حديثُ ذمٍّ للشِّرك وأهلِه، وتبعًا لذلك حديثُ مدحٍ للتَّوحيدِ وأصحابِه، فتعظيمُ تلك الشَّعائرِ يصبُّ في التَّوحيد، ويُرسِّخه في النَّفس والعقل والقلب.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها في قولِهِ: ﴿فَإِنَّهَا﴾:

الفاءُ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ

الفاءُ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾[3]، والرّابطُ بينَ الشَّرطِ وجوابِهِ هو العُمومُ في قولِهِ: ﴿ٱلْقُلُوبِ﴾؛ فإنَّ مِنْ جملةِ القُلوبِ قُلوبَ الَّذينَ يُعظِّمونَ شعائرَ اللهِ، والتَّقديرُ: (فقد

(1) ابن التّمجيد، حاشية على البيضاويّ: 13/ 62.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4982.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9/ 4982.

حلَّتِ التَّقوى قلبَهُ بتعظيمِ الشَّعائرِ؛ لأنَّها مِنْ تقوى القُلوبِ)، أيْ: لأنَّ تعظيمَها مِنْ تقوى القُلوبِ[1].

غرضُ التَّوكيدِ بـ(إنَّ) في قولِهِ: ﴿فَإِنَّهَا﴾:

تأكيدُ حصولِ التَّقوى للقُلوبِ

جيءَ بالتَّوكيدِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ لتأكيدِ حصولِ التَّقوى لقُلوبِ الَّذينَ يُعظِّمونَ شعائرَ اللهِ، وللاهتمامِ بمضمونِ الكلامِ، فإنَّ التَّقوى شأنُها عظيمٌ، وحصولُها في قلبِ العبدِ مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ الجليلةِ، فإنَّ القُلوبَ هي مَحَلُّ نظرِ الحقِّ ﷻ إلى العبدِ.

مرجعُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿فَإِنَّهَا﴾:

راجعٌ لمصدرِ الفعلِ أو لمضافٍ حُذِفَ للمبالغة

في مرجعِ الضَّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ وجهانِ: **أحدُهما**: أنَّ الضَّميرَ للشَّعائرِ على حذفِ مضافٍ، والأصلُ: فإنَّ تعظيمَها مِنْ تقوى القُلوبِ، فحُذِفَ المضافُ لدلالةِ الكلامِ عليهِ، فرجعتِ الكنايةُ إلى الشَّعائرِ[2]، وفي هذا الحذفِ نكتةٌ لطيفةٌ؛ وهي أنَّ نفسَ الشَّعائرِ عُدَّتْ مِنَ التَّقوى للمبالغةِ في كونِ امتثالِها مِنَ التَّقوى[3]، **والثّاني**: أنَّ الضَّميرَ للمصدرِ المفهومِ مِنَ الفعلِ قبلَهُ، أيْ: فإنَّ التَّعظيمةَ مِنْ تقوى القُلوبِ[4]، والأوَّلُ هو الأعلى لتكثيرِ الفائدةِ المناسبةِ للسّياقِ عليه.

معنى ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾:

القلبُ مَنبَعُ الشُّعورِ بالتَّعظيمِ وتقوى القلوبِ سببٌ لِشِدَّةِ تعظيمِ الشَّعائرِ

تحتملُ ﴿مِن﴾ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ أنْ تكونَ تبعيضيَّةً، أيْ: فإنَّها بعضُ تقوى القُلوبِ، وكونُ التَّعظيمِ مِنَ التَّقوى - مع أنَّها تَوَقِّي النَّفْسِ عنِ المُحرَّماتِ - باعتبارِ أنَّهُ يتضمَّنُ ترْكَ المُحرَّمِ المنهيِّ عنهُ[5]، وتحتملُ أنْ تكونَ لابتداءِ الغايةِ، أيْ: فإنَّ تعظيمَها ناشئٌ مِنْ تقوى القُلوبِ[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 257.
(2) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 273، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 60.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 225، وابن جرير، جامع البيان: 18/ 622، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121.
(5) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 60.
(6) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 45، والآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 144.

وتحتملُ أنْ تكونَ للتَّعليلِ، أيْ: فإنَّ تعظيمَها لأجلِ تقوى القُلوبِ[1]، وهو وجهٌ بليغٌ يدلُّ على أنَّ تعظيمَ الشعائرِ لم يكن إلّا بسَبَبِ مَضمونِ القلوب الَّتي هي منبَعُ الشُّعورِ بما يُعظَّم أو يُحقَّر، فكُلَّما ترقَّى القلبُ في مدارجِ التَّقوى؛ ازدادَ تعظيمُه لشعائرِ اللّه.

دلالة الإضافة في: ﴿تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾:

القلبُ هو مَحَلُّ التَّقوى ومَوطنُ نظرِ اللهِ إلى العبدِ ومكان تعظيمِ شعائرِه

أُضيفَتِ التَّقوى إلى القُلوبِ في قولِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾؛ لأنَّ حقيقةَ التَّقوى في القلبِ[2]، فإذا ثبتَتْ فيهِ، وتمكَّنَتْ؛ ظهرَ أثرُها في سائرِ الأعضاءِ[3]، ولأنَّ القلبَ هو مَحَلُّ نظرِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ إلى العبدِ، ومَحَلُّ قياسِ تعظيمِهِ لشعائرِ اللّهِ[4].

سرُّ استعمالِ القُلوبِ دونَ الأفئدةِ:

القُلوبُ موضعُ العقلِ والعِلمِ والدّينِ

عُبِّرَ بالقُلوبِ دونَ الأفئدةِ في قولِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾؛ لأنَّ الأفئدةَ مواضعُ العواطفِ والهوى، والقلوبَ مواضعُ العقلِ واليقينِ والوَحْيِ والدّينِ، وهي المناسبةُ للسّياقِ هنا؛ لأنَّهُ للحديثِ عن تعظيمِ شعائرِ اللّهِ سبحانَهُ وتعالى.

علَّةُ فصلِ الجملةِ:

الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ أو حالٌ بعدَ اعتراضٍ

فُصِلَ قولُهُ ﷻ: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يقلْ: (ولكم فيها منافعُ إلى أجلٍ مُسمًّى) بالعطفِ؛ لِما بينَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّهُ قيلَ: ما الحكمةُ في أنَّ اللّهَ بالغَ في تعظيمِ ذَبْحِ الحيواناتِ هذهِ المبالغةَ؟ فأُجيبَ بقولِهِ تعالى: ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾[5]، وقيلَ: الجملةُ حالٌ مِنَ الأنعامِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 144.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 56، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 257.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 9810.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 224.

في قولِهِ: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ [الحجّ: 30]، وما بينَهما اعتراضاتٌ، أو حالٌ مِنْ ﴿شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ على تفسيرِها بنَعَمِ الهَدْيِ[1].

معنى اللّامِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ﴾:

اللّامُ لاختصاصِ المسلمينَ بالانتفاعِ إكرامًا لهم وتيسيرًا في شريعتِهم

اللّامُ في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ للاختصاصِ والتَّمليكِ، وضميرُ الخطابِ موجَّهٌ للمؤمنينَ، أيْ: لكُم - أيُّها المؤمنونَ - دونَ غيرِكم فيها منافعُ إلى أجلٍ مُسمًّى[2]، وفي هذا الاختصاصِ والتَّمليكِ تكريمٌ للمؤمنينَ الحُجّاجِ المُعظِّمينَ لشعائرِ اللّهِ.

وهذه المنافعُ إمّا دنيويَّة؛ وهي الانتفاعُ بأسواقِ مكَّةَ والتِّجارةِ فيها وقتَ المناسك، وبركوبِ الهدايا والحَملِ عليها، وبشربِ ألبانها واستعمالِ أصوافها وأوبارها، إلى غيرِ ذلك من أوجُهِ الانتفاعِ العاجلِ، وإمّا منافعُ أُخْرَوية بالأجرِ والثَّوابِ في أداءِ المناسك إلى انقضاءِ وقتِ الحجِّ[3]، فأمّا وجهُ اختصاصِ المخاطَبين بالمنافعِ الأخرَوية؛ فظاهر، وأمّا اختصاصُهم بالمنافعِ الدُّنْيَوية؛ فلإباحةِ انتفاعِ المسلمين بالهَدايا انتفاعًا لا يُتلِفها مع التَّعريضِ بالرَّدِّ على المشركينَ الَّذين حرَّموا على أنفُسِهمُ الانتفاعَ بالهدايا بعد تقليدِها وإشعارِها[4].

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الجرِّ ﴿فِيهَا﴾:

شعائرُ اللهِ أُمَّهاتُ الخيرِ للطّائعين

يدلُّ حرفُ الجرِّ (في) الواردُ في قولِ الحقِّ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ على ظرفيَّةِ الشَّعائرِ للمنافعِ الَّتي تكونُ إلى أجلٍ مُسمًّى، وفي التَّعبيرِ بهِ تصويرٌ للشَّعائرِ بصورةِ الأصلِ والمَنْبَعِ الَّذي تكمُنُ فيهِ المنافعُ تصويرًا يتناغَى مع الحثِّ إلى تعظيمِها في الآيةِ السّابقة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 257.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 257.
(3) البَغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 384.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 258.

وجَعلُ المنافعِ فيها يقتضي أنَّها انتفاعٌ بخصائصِها ممّا يُرادُ مِنْ نوعِها، ففيه تشريعٌ لإباحةِ الانتفاعِ بالهدايا انتفاعًا لا يُتلِفُها، مع الرَّدِّ على المشركينَ الَّذين كانوا إذا قلَّدوا الهَدْيَ، وأشعَروهُ؛ حَظَروا الانتفاعَ بهِ مِنْ رُكوبِهِ والحَمْلِ عليهِ وشُرْبِ لَبَنِهِ وغيرِ ذلكَ[1].

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿فِيهَا﴾:

الضَّميرُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عائدٌ على الشَّعائرِ بتفسيرِها بالبُدْنِ على الرّاجحِ[2]، أيْ: لكُم في البُدْنِ منافعُ من الرُّكوبِ والدَّرِّ والنَّسْلِ والصّوفِ وغيرِ ذلكَ[3]، وقيلَ: الضَّميرُ في ﴿فِيهَا﴾ عائدٌ على الشَّعائرِ على العُمومِ[4]. :

الضَّميرُ عائدٌ على (البُدْنِ)

نكتةُ تأخيرِ المُسنَدِ إليهِ ﴿مَنَافِعُ﴾:

قُدِّمَ شِبهُ الجملةِ المشتملُ على ضميرِ الخطابِ ﴿لَكُمْ﴾ على ﴿مَنَافِعُ﴾ في قولِ اللهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، وتعجيلِ مَسَرَّةِ المؤمنينَ حينَ يَطْرُقُ سَمْعَهم كونُ المنافعِ الَّتي في البُدْنِ لهُم؛ لأنَّ السّياقَ للامتنانِ عليهِم، وفي التَّقديمِ تقويةٌ للامتنانِ.

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ وتعجيلُ المَسَرَّةِ

وأمّا المشتملُ على ضميرِ الشَّعائرِ ﴿فِيهَا﴾؛ فتقديمُه على ﴿مَنَافِعُ﴾ لمناسبةِ السّياقِ بتعظيمِ الشَّعائرِ وزيادةِ الاهتمامِ بها، مع ما فيه من الإشعارِ بانحصارِ النَّفعِ والخيرِ في الهدايا أو في عمومِ المناسكِ، مبالغةً في الحثِّ على تعظيمِ الشَّعائرِ والإقبالِ عليها.

نكتةُ التَّعبيرِ بجمعِ الكثرةِ ﴿مَنَافِعُ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ جمعِ الكثرةِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ كلمتُهُ:

الإشارةُ إلى تعدُّدِ المنافعِ وتنوُّعِها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 257.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 426، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 507، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 56.

(4) السَّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 273، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 535.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ على تعدُّدِ منافعِ البُدْنِ وتنوُّعِها مِنْ دَرِّها ونَسْلِها وصوفِها وظَهْرِها ونحوِ ذلكَ[1]، وفي هذا الجمعِ مناسبةٌ لسياقِ الامتنانِ، وزيادةٌ لمَسَرَّةِ المؤمنينَ المخاطَبينَ.

غرضُ استعمالِ حرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَىٰٓ﴾ الدّالِّ على انتهاءِ الغايةِ الزَّمانيَّةِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، على أنَّ حِلَّ الانتفاعِ بالهدايا مُؤقَّتٌ بوقتٍ معلومٍ ينتهي عندَهُ، وفي التَّعبيرِ بذلكَ تنبيهٌ للمسلمينَ لئلّا يتجاوزوا الحدَّ في انتفاعِهم بها، وقد اختُلِفَ في هذا الوقتِ المعلومِ هل هو وقتُ بَعْثِها هَدْيًا أو وقتُ نَحْرِها[2].

الدَّلالةُ على انتهاءِ مُدَّةِ الانتفاعِ

غرضُ تنكيرِ ﴿أَجَلٍ﴾:

تنكيرُ ﴿أَجَلٍ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ وتباركَ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ للإفرادِ، والمعنى: (لكُم فيها - أيُّها المؤمنونَ - منافعُ إلى فردٍ مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالأجلِ).

سرُّ ذِكْرِ الوصفِ ﴿مُّسَمًّى﴾:

في وصفِ الأجلِ بكونِهِ مُسمًّى في قولِ اللهِ تعالى شأنُهُ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تأكيدٌ لكونِ الانتفاعِ بالهدايا مُؤقَّتًا بغايةٍ معلومةٍ لا ينبغي للمسلمينَ تجاوزُها إلى ما بعدَها، فإنَّ اللّائقَ بالشَّيءِ المُعظَّمِ تفصيلُ الحديثِ عنه وكمالُه، وقد اختُلِفَ في هذا الأجلِ المُسمَّى؛ فقيلَ: هو وقتُ تقليدِها، وقيلَ: هو وقتُ نَحْرِها[3].

مِن تعظيمِ الشَّعائرِ تأكيدُ تَوقيتِ الانتفاعِ

بلاغةُ حرفِ العطفِ ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في الأصلِ للتَّراخي في الوقتِ استُعيرَتْ في قولِ اللهِ جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ للتَّراخي في الأحوالِ، والمعنى: (لكُم

الدَّلالةُ على التَّراخي في الرُّتبةِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 224، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 106.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 624.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 624.

في الهدايا منافعُ كثيرةٌ في دُنياكم ودينكم)، وإنَّما يعتدُّ اللهُ بالمنافعِ الدّينيَّةِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ﴾ [الأنفال: 67]، وأعظمُ هذهِ المنافعِ وأبعدُها شَوْطًا في النَّفعِ مَحِلُّها إلى البيتِ[1]، وفي ذلكَ بيانُ كونِ نفسِ النَّحْرِ منفعةً[2] مع الإبلاغِ في تعظيمِ منفعتها.

دلالةُ الاسمِ المُشتَقِّ ﴿مَحِلُّهَآ﴾:

﴿مَحِلُّهَآ﴾ في قولِهِ علَتْ كلمتُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ اسمُ زمانٍ، أيْ: وقتُ وجوبِ نَحْرِها، وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا ميميًّا بمعنى الوجوبِ مِنْ حلَّ الدَّينُ؛ إذا وجبَ، أيْ: وجوبُ نَحْرِها[3]، وقيلَ: هو مصدرٌ ميميٌّ من حَلَّ يَحُلُّ؛ إذا بلغَ المكانَ، واستقرَّ فيهِ[4].

المَحِلُّ اسمُ زمانٍ أو مصدرٌ ميميٌّ

بلاغةُ الكنايةِ في قولِهِ: ﴿مَحِلُّهَآ﴾:

على القولِ بأنَّ المَحِلَّ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ مصدرٌ ميميٌّ مِنْ حَلَّ يَحُلُّ؛ إذا بلغَ المكانَ، واستقرَّ فيهِ، يكونُ قولُهُ: ﴿مَحِلُّهَآ﴾ كنايةً عن نهايةِ أمرِ الهدايا، كما يُقالُ: بلغَ الغايةَ، ونهايةُ أمرِها النَّحْرُ أو الذَّبْحُ[5].

المَحِلُّ كنايةٌ عن نهايةِ أمرِ الهدايا

نكتةُ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ ﴿مَحِلُّهَآ﴾:

قُدِّمَ المُسنَدُ إليهِ ﴿مَحِلُّهَآ﴾ في قولِ اللهِ تعالى شأنُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ على الأصلِ في التَّرتيبِ، وللعِنايةِ بالمُقدَّمِ، وهو وقتُ وجوبِ النَّحْرِ أو وجوبُ النَّحْرِ، ولَمّا كان المقصودُ تعظيمَ مَحِلِّها - بجعلِه نفسِه منفعةً - كان اللّائقُ به التَّقديمَ، فهو رأسُ معنى جملتِهِ؛ ولأنَّ في تأخيرِ قولِهِ: ﴿إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ مراعاةً لملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها وما بعدَها مِنَ الفواصلِ.

التَّقديمُ على الأصلِ للعِنايةِ بالمُقدَّمِ ولِرعايةِ الفاصلةِ

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 157، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 507.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 146.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 296، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 61.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 258.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 258.

وإنَّما بُحِث في هذا التَّقديم؛ لأنَّ الجملةَ الَّتي قبلَ هذه الجملةِ أُخِّر فيها ذِكْرُ المُسنَد إليه: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾، فكان نَظْمُهُ في هذه غيرَ مُشاكلٍ لنَظْمِه في تلك، فبُحِثَ في عِلَّة نظمِه على الأصل.

براعةُ استعمالِ حرفِ الجرِّ ﴿إِلَى﴾:

الـدَّلالـةُ على انـتـهـاءِ غـايـةٍ مكانيَّةٍ

﴿إِلَى﴾ في قولِه جلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ لانتهاءِ الغايةِ؛ وهي هنا غايةٌ مكانيَّةٌ، أيْ: ثمَّ مَحِلُّها مُنتهيةً إلى البيتِ العتيقِ، والمُرادُ به ما يليه بعلاقةِ المُجاوَرةِ، فإنَّها لا تنتهي إلى البيتِ نفسِه، وإنَّما تنتهي إلى ما يَقْرُبُ منهُ، وقد جُعِلَتْ مِنًى والمَرْوَةُ وطُرُقُ مكَّةَ مَناحِرَ[1]، ومِنْ براعةِ التَّلاؤمِ والتَّناسبِ في الآيةِ: أنَّهُ قد ذُكِرَت هنا غايةٌ مكانيَّةٌ، وقد تقدَّمَ ذِكْرُ غايةٍ زمانيَّةٍ في قولِه جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

نكتةُ ذِكْرِ البيتِ العتيقِ:

البـيـتُ أشـرفُ الحَـرَمِ ومقصد الحجّاج

أمّا على القولِ بأنَّ الشَّعائر هي المناسك؛ فذِكْرُ البيت في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ على حقيقتِه، أيْ: محلُّ النّاس من إحرامِهم إلى البيت العتيق، بأن يطوفوا به طوافَ الزّيادة يومَ النَّحر، وأمّا على القول بأنَّ الشَّعائرَ هي الهدايا؛ فإنَّ المُرادَ بالبيت في قوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾: الحرمُ، أيْ: مَنْحَرها في الحَرَم المحيط بالبيت العتيق[2]، وجوَّزَ إطلاقَ البيتِ على حرمه كلِّه أنَّ الحرمَ – الَّذي هو حريمُ البيت – في حُكمه، كقولِكَ: بلَغْنا البَلَدَ، وإنَّما شارفْتُموهُ، واتَّصلَ مَسيرُكم بحُدودِه[3].

واختُلِفَ في سببِ ذِكْرِ البيتِ العتيقِ دونَ الحَرَم، فقيل: ذُكِرَ البيتُ؛ لأنَّه أشرفُ الحَرَم[4]، وقيلَ: لأنَّ التَّقرُّبَ بالهدايا بواسطةِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 146.
(2) البَغويّ، معالم التَّنزيل: 5/ 385.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 157.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 121.

تعظيم الكعبةِ، إذِ الهدايا إنَّما شُرِعَتْ تكملةً لشرعِ الحجِّ، والحجُّ قصدُ البيتِ، كما دلَّ عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: 97]، فالهدايا تابعةٌ للكعبةِ، قالَ تعالى: ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: 95]، وإن كانَتِ الكعبةُ لا يُنْحَرُ فيها، وإنَّما المَناحرُ مِنًى والمَرْوَةُ وطُرُقُ مكَّةَ بحسَبِ أنواعِ الهدايا[1]، ففي ذِكْرِ البيتِ تعظيمٌ للنَّحْرِ، كما عُظِّم بتعظيمِ محلِّها، وتكملةٌ للامتنانِ بمنافعِ الشَّعائرِ، فإن البيتَ ذو منافعَ لهم أيضًا.

نكتةُ وصفِ البيتِ بالعتيقِ:

العتيقُ وصفُ تشريفٍ وتعظيمٍ حاملٌ لعدَّةِ معانٍ

قيلَ في سببِ وصفِ البيتِ بالعتيقِ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾: إنَّهُ سُمّي بذلكَ؛ لأنَّهُ قديمٌ إذْ هو أوَّلُ بيتٍ وُضِعَ للنّاسِ، وقيلَ: لأنَّهُ أُعتِقَ مِنَ الجبابرةِ، كم مِنْ جبّارٍ سارَ إليهِ ليَهْدِمَهُ فمنعَهُ اللهُ؟ وقيلَ: لأنَّهُ لم يُمْلَكْ قطُّ، وقيلَ: لأنَّهُ أُعتِقَ مِنَ الغَرَقِ زمنَ نوحٍ ﷺ، وقيلَ: لأنَّهُ بيتٌ كريمٌ مِنْ قولِهم: عِتاقُ الخيلِ والطَّيرِ[2]، وقيلَ: لأنَّ اللهَ تعالى يُعتِقُ فيهِ رِقابَ المُذنبينَ مِنَ العذابِ[3]، وكلُّ هذهِ الأوصافِ تقتضي التَّشريفَ والتَّعظيمَ، ولا يمتنعُ الجمعُ بينَها.

بلاغةُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ

زيادةُ رَبْطِ أجزاءِ الكلامِ وإشارةٌ إلى وحدةِ مَقصَدِها

في قولِهِ سبحانَهُ وتعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ ردٌّ للعَجُزِ على الصَّدْرِ باعتبارِ مبدأِ هذهِ الآياتِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: 26][4]، فقد افتُتِحَتِ الآياتُ بذِكْرِ البيتِ، واختُتِمَتْ بذِكْرِهِ، وفي ذلكَ تأكيدٌ لكونِ مَدارِ الحجِّ على قصدِ البيتِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 258.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 153.
(3) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 119.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 258.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفؤادُ والقلبُ:

الـفـؤادُ محلُّ الـتَّـوقُّـد والـعـواطـف والـقـلـب محلُّ القوَّة والعزم

قيلَ: الفؤادُ كالقلب، لكنْ يُقالُ لهُ: فُؤادٌ؛ إذا اعتُبِرَ فيهِ معنى التَّوقُّدِ، يُقالُ: فَأَدْتُ اللَّحْمَ: شَوَيْتُهُ، ولَحْمٌ فَئِيدٌ: مَشْوِي، قالَ تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: 6-7]، وتخصيصُ الأفئدةِ تنبيهٌ على فَرْطِ تأثيرٍ لهُ[1]، وقيلَ: الفُؤادُ ألينُ مِنَ القلبِ، ولذلكَ يكونُ مَحَلًّا للعواطف، ولِما خفَّ شأنُهُ، ويكونُ القلبُ مَحَلًّا لِما عَظُمَ شأنُهُ من العَزْمِ والتَّمكُّنِ والاعتقادِ[2].

(1) الرَّاغب، المُفردات: (فأد).

(2) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 665 - 675.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع والثلاثون،
سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 34 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-76-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 34 : المجلد الرابع والثلاثون، سورة الأنبياء من الآية 89 إلى سورة الحَجّ الآية 50.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-76-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3990244 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»